(١٦)
وإذا لم ينفع الذوق*

المصريون - ومثلهم فى ذلك مثل كل البلاد المتخلفة - ينقسمون إلى قسمين: أقلية متعلمة وأكثرية غير متعلمة ، وليس المراد بالتعليم هنا مجرد معرفة القراءة والكتابة ، لأن الكثيرين جدا ممن يقرأون ويكتبون يظلون رغم ذلك جهلة ، بل فى غاية الجهل ، وأنا شخصيا أتعب فى تعليم المتعلمين أضعاف تعبى مع الجهلة ، ومن نحو شهر جاءنى خطاب من مصلحة حكومية ، وصدقنى إذا قلت لك إننى لم أستطع أن أقرأ إلا اسم المصلحة المطبوع أعلى الخطاب ، أما بقية الخطاب فكان مكتوبا بخط هو الغاية فى الرداءة ، بل إن بعض الحروف تركت دون نقط أصلا ، فقلت فى نفسى أذهب إلى تلك المصلحة لأستفهم ، وذهبت وقابلت المدير ورحب بى ونظر فى الخطاب وقال:

آه.. هذا خطاب من أخينا عطية مدير إدارة هنا ، الآن أطلبه هنا وتطلب إليه أن يقرأ ما كتبت يده لأننى فى الحق لم أستطع أن أقرأ أكثر مما قرأت أنت.. وجاء سى عطية ، ودعاه المدير إلى الجلوس فجلس ، وقدمنى له ثم قال له.. يا سى عطية ألا تحسن قراءة خطك.. انظر ماذا كتبت هنا.

وناوله الخطاب فأخذه وأخذ يحاول أن يقرأ ما كتبت يده فلم يستطع، وجعلت أتأمله وهو يحاول القراءة فدهشت ، فالذى أمامى كان سنكوحا غبيا بلا أبسط ملامح الإنسانية ، ثم أنه كان قصير القامة ذا كرش رهيب ووجه قريب جدا من وجه أقبح فأر تستطيع أن تتصوره ، وكان قد أطلق لحية بشعة وبعد دقائق نظر إلينا وقال: الحق أننى لا أستطيع أن أقرأ.

---

* نشرت هذه المقالة فى ٣ يونيو ١٩٩٠م.

– ولكن هذا هو خطك.

– طبعا هذا خطى ، ولكنى نسيت سأذهب إلى مكتبى لأراجع الأوراق ثم آتيكم وأخبركم بما فى هذا الخطاب. وتركنا ومضى والسيد رئيسه نظر إلى وقال:

– هذه يا سيدى هى عينة الموظفين الذين أعمل بهم ، وقل لى من فضلك ماذا كنت أستطيع أن أعمل بمثل هذا الحيوان؟

– تستطيع يا سيدى أن تعمل الكثير إذا أردت ، ولكنك تقبل وتسكت، وأمثال هذا الرجل يظنون أنهم موظفون يعملون لأنك ساكت.

– وهل أنا أستطيع مثلا أن أفصل مثل هذا الرجل؟

– طبعا تستطيع لو أردت ، ولكنك تقول إنه سيرفع قضية ليعود ، فلماذا لا تذهب أنت إلى المحكمة ، وتدافع عن قرارك؟ لماذا لا تأخذ مثل هذا الخطاب وتريه للمحكمة وتقول: قولى لى يا محكمة هذا هو مثال الخطابات التى يكتبها حضرته ، فكيف يستمر فى العمل وأذى الناس بهذا الشكل؟

– إذن فسأنفق عمرى فى جلسات المحاكم؟

– ولم لا؟ على الأقل ستعرف الدولة نوع الموظفين الذين تعينهم ، ونوع الخدمة التى يحصل عليها هذا الشعب ، وأنا شخصيا فعلت هذا من ثلاثين سنة: عينونى ناظرا لمدرسة ابتدائية ، فكان أول ما فعلت أن فصلت عشرة فراشين من اثنى عشر كانوا يعملون فى المدرسة ، وتظاهروا ولكنى لم أعدهم إلى العمل ، واستخدمت غيرهم ، ووقف معى المحافظ ، وكان باشا عظيما ، والفراشون الجدد عملوا باحترام شديد وأصلحت دورة المياه ونظمت المدرسة.

فهز رأسه وقال: ده كان زمان وربنا يرحم زمان.

– دلوقت كلنا نقول ربنا يرحم زمان ، وكان ماله زمان؟ غيرناه وها نحن أولاء نبكيه ، لم نكن بلدا متخلفا بالأمس ، ولكننا اليوم متخلفون.

وعاد السيد عطية وجلس وقال:

– أقول لك الحق يا سيدى المدير؟ أنا لم أستطع قراءة خطى ، ولم أتعرف على المناسبة التى كتبت فيها هذا الخطاب.

قلت: وماذا نعمل يا سى عطية؟

– مفيش.. تيجى بعد نحو جمعة كده.

– يا سيدى عطية ، هل تعرف صعوبات المجىء إلى هنا؟ إننى الآن لن أجد تكسيا لأعود إلى بيتى فكيف أعود إليك بعد أسبوع؟

– وماذا أعمل سيدى أنا لا أستطيع أن أقرأ هذه الكلمات.

– ولا عفريت فى الدنيا يستطيع أن يقرأ خطك؟ ثم إنك تسمى نفسك متعلما.

– إذن فماذا أكون؟

– قلها ولا تخف.. قل إنك جاهل!

فنظر إلى مديره وقال: شاهد يا حضرة المدير؟ يقول إننى جاهل.

والمدير سكت وعطية أفندى قام وخرج وقلت للمدير:

– لماذا سكت يا سعادة المدير؟ لماذا لم تقل لهذا الرجل إنه جاهل.

– أقول لمين أو لمين؟ كلهم هكذا يا سيدى هذه الأيام متعلمون أميون.

– ونحن الرعية المسكينة تروح فى داهية! لهذا نحن بلد متخلف. إن الذين يشغلون الوظائف الدنيا أميون ، والذين يشغلون الوظائف الصغرى أميون أكثر ، ومع الأسف يقولون لك إننا متأخرون مائة سنة ، وأقسم لك يا سيدى أننا متأخرون ألف سنة ، ومتأخرون ولا أمل فى تقدمنا.

□□□

والعلاج الوحيد لهذا التأخر الخطير هو استعمال العنف. إذا لم ينفع الذوق فلا يبقى إلا الضرب ، ومن أكثر من ستين سنة ونحن نقول للناس عندنا يا إخوانا لا تنزلوا فى ماء الترع ولا تغسلوا ملابسكم فيها. هذا الماء ملىء بسركاريا البلهارسيا ، وهذه البلهارسيا تصفى دماءكم وتصيب الكلى والمثانة وأحيانا الكبد. نرجوكم أيها الناس ألا تنزلوا فى الترع.

وهم يسمعون منك هذا الكلام وهم فى الطريق إلى الترعة! ولو أننا كنا نخاطب لسمع الحائط ، فماذا تعمل مع أولئك الحوائط؟ أما الذوق فهم لا يعرفون الذوق ولا يحترمونه ، إذن فليس هناك إلا الضرب ، من نجده مصابا بالبلهارسيا فقبل أن نعالجه نجلده خمس جلدات على كل ناحية من أسفل رجليه ، وتأكد أن الجروح التى سيسببها له الجلد والألم الذى سيشعر به سيجعله لا يقترب من ماء الترعة إلا ذكر ذلك كله وأحس به، سيحرم على نفسه نزول الترع ، أما نحن فنقول له بكل أدب ولطف: الآن أصبح علاج البلهارسيا بالحبوب.. أربع حبوب على أكثر تقدير وتخف وتعود كالحصان ، وهذه الحبوب نعطيها لك مجانا ، وأنا أسأل ولماذا مجانا؟ إذا كان الواحد من هؤلاء البؤساء يشترى السيجارة اليوم بخمسة قروش ، ويشرب السيجارة فى دقيقتين ، فلما إذن والله نوزع عليهم حبوب البلهارسيا مجانا؟ لماذا نستدين الملايين لنعالج ناسا لا يريدون أن يشفوا ، وهذه السيجارة التى يطفحونها كم مرة قلنا لهم هذه سم ، هذه ستعطيكم سرطان الرئة لا تشربوها من فضلكم؟ ولكنهم لا يسمعون إلينا ، ويذهبون لشراء السجائر ، وأفلام التليفزيون تعطيك دائما صورة المعلم جالسا فى المقهى وفى فمه الشيشة وكل دخانها سم ، أى أننا من ناحية نحذر الناس من السجائر ، ومن ناحية أخرى ندعوهم إلى الدخان ، وأنا فى رأيى أن أى إنسان نراه يدخن نأخذه ونقول له:

دخن كما تريد ، ولكننا سنجلدك خمس جلدات عن كل سيجارة! وسترى بعد الجلد أنه لن يقدم بعد ذلك على تدخين سيجارة إلا ذكر ألم

الجلد ، ومن لا ينفع معه الذوق ينفع معه العنف ، أما أن نخاطبه بلطف، وفى المرة الثانية نخاطبه بلطف أكثر ، فكلام فارغ ، لأن هناك ناسا لا ينفع معهم الذوق ، ولابد من ضربهم ، وحتى أوروبا تؤمن بذلك الآن ، ففى إنجلترا حرموا عقوبة الإعدام ، وقالوا إنها ليست إنسانية ، وقلنا لهم: لا ياناس ! هؤلاء المجرمون أساسا غير إنسانيين ، ونحن نعفيهم من الإعدام ونجعله سجنا مؤبدا ، ونتعلل بكلام فارغ ونقول إن عقوبة الإعدام غير إنسانية ، ونحن نقول لكم بل إنسانية: رجل قتل رجلا مع الإصرار وسبق الترصد ، أليس هذا تصرفا غير إنسانى؟ فكيف نعامله مع ذلك معاملة إنسانية ونقول: إننا نستبدل الإعدام بالسجن المؤبد ، ونحن نقول لكم إن هذا خطأ ، والله سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز إن قتل القاتل فيه حياة للمجتمع: (ولكم فى القصاص حياة) ولم تسمعوا إلينا ، فماذا كانت النتيجة؟ إن السجون فى إنجلترا تضيق بالمساجين وهذا الطراز من المساجين القتلة طراز مجرم ، لا يكف عن الشغب ، ونحن نسجنهم مؤبدا، ونطعمهم ونعالجهم ، بل نعطيهم السجائر ونشترى لهم الكتب ونقول: هذه إنسانية ، وهؤلاء المجرمون لا ينفع معهم الذوق ، لأنهم قتلة مجرمون بطبعهم ، ولهذا نجد اعتصامات السجون واستيلاء المجرمين على السجون وقتلهم السجانين شائعا فى إنجلترا ، وهذا يحدث كل يوم فى إنجلترا ، واعتصامات المساجين هناك أصبحت داء اجتماعيا خطيرا ، وسيتزايد مع الزمن ، وإذا كانوا هناك يفكرون فى بناء سجون جديدة ، فهم سيضطرون فى المستقبل إلى بناء أضعاف هذه السجون ، لأننا نسجن من يستحقون الموت ، ونخالف أوامر الله سبحانه وتعالى ونقول إن هذه إنسانية.

وتصوروا إننا نكلم الناس بكل ذوق فى مسائل تحديد النسل ، ومع ذلك فإن الناس ينجبون أكثر من الأرانب ، وأنت إذا كلمت واحدا منهم قال لك: يا سيدى! كله من عند الله ، وهل نحن نخلق الناس؟

– يا سيدى اسمع إن هذا الذى تعمله ليس إنسانية ، فمن الذى يطعم أولادك هؤلاء؟

– يا سيدى! إن أحدا لا ينام دون عشاء.

– ولكن هل أنت تشترى لهم العشاء؟

– يا سيدى! ربنا بيرزق الدودة فى الحجر.

– أجل ربنا سبحانه يرزقها لأنها دودة ، والدودة لم يهبها الله عقلا ، ولكنه وهبها غريزة ، أما أنت فقد وهبك الله عقلا.. وقال لك: لقد أعطيتك العقل وهو نعمتى الكبرى ، ففكر فى مشاكلك واعمل على حلها.

ooo

وتصور يا عزيزى القارئ أننا لو أخذنا سى عطية وجلدناه خمس جلدات عقابا له على كتابة خط لا يقرأ ، ألا تتصور أنه فى المرات القادمة سيحاول أن يكتب خطا أحسن بدلا من أن يقول لى:

– تعال بعد جمعة!

ولماذا أجيئه بعد جمعة؟ هل سيتعلم القراءة والكتابة فى جمعة؟ طبعا لا! ولكنها تلامة وصداغة وقلة أدب ، وصدقنى أننا لابد أن نستعمل القوة، وإلا فلا سبيل أبدا للنهوض ، ولكى تعرف أن القوة تنفع أقول لك إنهم فى إنجلترا من مائة سنة كانوا يسجنون أى إنسان يستدين شلنا ولا يرده ، فإذا فعل ذلك بخمس شلنات حكموا عليه بالإعدام وأعدموه ، فهذه الطريقة تعلم الناس هناك احترام القانون والأموال. عندما كانوا يستخدمون القوة مع من لا ينفع معهم الذوق تحسنت أحوالهم ونفعوا وخرجوا من حياة الفوضى التى كانوا فيها ، وأصبحوا أمة عظيمة ، فانظر الآن إلى أحوالهم وهم يحكمون على المجرم القاتل بالحبس مدى الحياة : أولا ساء مستوى الحياة فى إنجلترا كلها ، وأصبحت اليوم لا تجد موظفا

كبيرا إلا وجدته لصا يأخذ الرشا ويسرق الأموال ، ومثل هذه الحال موجود فى أمريكا وفرنسا وكل بلاد أوروبا ، ثم يريدون أن نفعل فعلهم ، وبعضنا يخدعه كلام أهل الغرب ويميل إلى التساهل مع المجرمين ونحن نقول لهم:

لا والله لا نحكم على القاتل بأن يكون ضيفا على هذه الأمة بقية حياته، نطعمه ونعالجه ونشترى له الكتب ، لأن الله سبحانه وتعالى قال إن القاتل لابد أن يقتل ، فكيف نتسامح معه نحن؟ إننا لا نوافق على ما يسمونه فى الغرب بحقوق الإنسان ، لأن حقوق الإنسان مسجلة عندنا فى القرآن الكريم بصورة أكمل وأتم ، والقاتل لابد أن يقتل ، والزانى لابد أن يرجم ، ونحن لا نعرف هذا العبث بالحياة والقانون ، إن القاتل ليس إنسانا ، إنه عدو.. وحش.. مجرم. ولابد من قتله فكيف تريدون منا أن نعامله بما تسمونه بالإنسانية ، وإذا كنتم جادين حقا فلماذا لا تطالبون بعقاب الإسرائيليين الذين يقتلون أطفال فلسطين بحجة المحافظة على النظام؟ هل هؤلاء القتلة هنا فوق مستوى البشر؟ أم أنكم جبناء أنذال وتريدون منا أن نكون أنذالا مثلكم. ومهما فعلتم فمازالت عقولنا فى رءوسنا ونحن لا نتصرف أبدا إلا بما فيه صالح مجتمعنا.

ومن الغريب أن أصحابنا يريدون أن تنهض بلادنا دون عقوبات ، مع أن العقاب هو أساس التربية ، ونحن عندنا كلية قانون ، ولكننا نسميها كلية الحقوق ، لأن تفكيرنا كله فى الحقوق دون الواجبات ، لأن أحدا عندنا لا يفكر فى الواجبات أو يرى أنها أساس العدالة ، وقد عرفت إنسانا يحمل بشدة على العقوبات ، ويقول إنها غير إنسانية.. فقلت له : يا إنسان وكيف تتصور أن العقوبات غير إنسانية مع أن هناك مادة قانونية ضخمة وبالغة الأهمية فى مدرسة الحقوق تسمى قانون العقوبات ، وليست هناك مادة تسمى المجاملات أو المداعبات. فتصور أننا نريد إنهاض شعبنا

الآن بهذه المعاملة التى نسميها إنسانية ، فأنت مثلا لا تستطيع أن تفصل موظفا مهما فعل ، وهذا أمر عجيب ، لأننى لا أتصور مديرا يستطيع إدارة أى مؤسسة إلا إذا كانت له القدرة على الفصل ، وأذكر أننا فى المؤسسة التى نعمل فيها عرفنا موظفا أهان رئيس مجلس الإدارة بمقال كتبه فى مجلة أخرى. وقلت لرئيس مجلس الإدارة: افصله فقال: يا عزيزى إنهم فى عصرنا هذا لا يريدون فصل أحد ، يقولون إنهم يخافون من سوء استعمال الفصل ، فقلت له: عندهم حق فى هذه المسألة الأخيرة ، ولكن يا أخى ما دام لك الحق فى أن تعطى ، فلابد أن يكون لك الحق أيضا فى أن تعاقب؟

وأذكر أننا ونحن صغار كان معنا اثنان من الأولاد.. كان أبوهما يحبهما جدا لأنهما كانا أبيضين وفى غاية الجمال ، وقد أنجبتهما له زوجة قيل له إنها تركية ، وكانت بيضاء وحريرية ، وكان قد تزوج قبلها سيدة سمراء فأنجبت له بنتا سمراء ؛ لهذا فعندما جاءه هذان الغلامان أحبهما جدا ، وكان فى كل صباح يذهب إليهما فى السرير ويقول لهما:

- عاوزين تروحوا المدرسة النهاردة.

فيتقلبان فى فراشهما ويقولان: لا يا بابا.

- حاضر يا حبايبى

وعندما كبرت وعينونى مديرا عاما للثقافة فى وزارة التعليم اخترت شابا لطيف الهيئة وجعلته سكرتيرا لى. وبعد أيام قال لى:

- أتعرفنى يا دكتور؟

- أظن ذلك ، فإن شكلك ليس غريبا على

فقال: آه الآن ذكرتك. ولماذا يا أخى لم تكمل دراستك؟

قال: أبى كان يدللنا وجزاه الله على سوء معاملته إيانا.

– سوء معاملة؟ الذى أذكره أنه كان يدللك مع أخيك ، وأنا شخصيا كنت أغبطك على هذه المعاملة الكريمة التى كان أبوك يعاملك بها ، ألم يكن يحمل إليك وإلى أخيك القشدة فى الفراش فى الصباح.

– نعم مع الأسف الشديد!

– عندك حق ، وأبوك أيضا عنده حق ، فقد كان يحبك مع أخيك حبا عظيما.

قال: لا يا دكتور إنه لم يكن يحبنا.. كان يحب أمنا ، ولكنه أساء إلينا، والنتيجة ما ترى؟ فها أنت بخير وأنا يا أخى سعيد بك وواثق فيك، فأنت نوع ممتاز من الشبان ، وأنا أحتاج إليك وسأحاول تعويضك على قدر الإمكان.

وهذه الحكاية تدلك على أن الذى تترفق به أكثر مما ينبغى ولا تعاقبه إذا أخطأ.. لا يكون فى النهاية شاكرا لك. وأذكر أننى عندما بدأت أدرس فى السوربون فى باريس لاحظ أستاذى أننى شديد الاجتهاد فقال لى:

– يا فلان عندنا هنا مكتبة للاستشراق فى الكلية ، وهذه المكتبة تشترى أو تستولى على كتب المستشرقين لكى تضعها فى خدمة العلماء ، ونحن نستخدم دائما شابا فى وظيفة أمين لها ، ولكنها ليست وظيفة فى الحكومة الفرنسية ، إنها أتعاب تعطى من اعتماد المكتبة.

وعرفت بعدها أن راتب الاعتماد كان يساوى خمسين جنيها إنجليزيا فى الشهر ، وذكرت عندما قالوا لى ذلك أنهم يأملون فى زيادة المكافأة مع أن كل راتب عضو البعثة المصرية فى فرنسا إذ ذاك كان واحدا وعشرين جنيها فى الشهر ، وبهذا أصبح دخلى فى الشهر ٧٢ جنيها فى الشهر ، وأحسست أننى إنسان آخر وقلت لأستاذى:

– وأين أمين المكتبة قبلى؟

- فصلناه ، فقد كان مهملا ، ثم إنه كان يميل إلى العبث مع النسوان، فقلت له : أما أنا فلن تفصلونى أبدا.

- إن شاء الله!

ولكى تعرف أهمية العقوبات بالنسبة لأوروبا وأمريكا أقول لك إن السفن التى كانت تحمل المهاجرين إلى أمريكا كانت تطلب من المهاجرين أن يحمل كل منهم طعامه إلى السفينة ، وكان الواحد منهم إذا نفد طعامه وأخذ يعتمد على التسول من الآخرين كتفوه ورموه فى البحر ، وكانوا يقولون: إذا كان هذا الرجل لم يحسب حساب طعامه على السفينة فلابد أنه سيكون متسولا فى أمريكا ، ونحن لا نريد متسولين هناك ، نريد مجتهدين يعملون ويكسبون. لأننا نريد قطر عظيم. والمتسول والكسلان لا ينفعنا.

وقد كان هذا العنف مع المهاجرين من أكبر أسباب نجاح المهاجرين إلى أمريكا الشمالية من العالم الجديد ، لأن العقوبات تنشئ مجتمعا قويا. أما الدلع فها أنت ذا ترى ماذا ينتج. □